**الحصار الاقتصادي**

**ورد بأسانيد مختلفة عن موسي ابن عقبة، وعن ابن إسحاق وعن غيرهما أن كفار قريش أجمعوا أمرهم علي قتل رسول الله صلي الله عليه وسلم، وكلموا في ذلك بني هاشم وبني المطلب ولكنهم أبوا تسليمه صلي اله عليه وسلم إليهم، فلما عجزت قريش عن قتله صلي الله عليه وسلم أجمعوا علي منابذته ومنابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بني هاشم وبني المطلب، فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه علي ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلم بنو المطلب رسول الله صلي الله عليه وسلم للقتل، وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة. والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات، بدءاً من المحرم سنة سبع من البعثة إلى السنة العاشرة منها، وقيل استمر ذلك سنتين فقط.**

**ورواية موسي ابن عقبة تدل علي أن ذلك كان قبل أمر رسول الله صلي الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وإنما أمرهم بها أثناء هذا الحصار. أما رواية ابن اسحاق فتدل علي أن كتابة الصحيفة كانت بعد هجرة أصحابه صلي الله عليه وسلم إلى الحبشة وبعد إسلام عمر.**

**وحوصر بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين، ومعهم رسول الله صلي الله عليه وسلم في شعب بني المطلب، وإنما شعاب مكة متفرقة، واجتمع فيه من بني هاشم وبني المطلب المسلمون والكافرون، أما المسلمون فتديناً وأما الكافرون فحمية، إلا ما كان من أبي لهب، عبد العزي ابن عبد المطلب، فإنه خرج إلى قريش فظاهر النبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه.**

**فجهد النبي صلي الله عليه وسلم والمسلمون جهداً شديداً في هذه الأعوام الثلاث واشتد عليهم البلاء، وفي الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر. وذكر السهيلي أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتي أحد أصحاب رسول الله إلى السوق ليشتري شيئا من الطعام يقتاته لأهله، فيقوم أبو لهب فيقول يا معشر التجار غالوا علي أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يده شيء يعللهم به.**

**فلما كان علي رأس ثلاث سنوات من بدء هذا الحصار، تلاوم قوم من بني قصي، فأجمعوا أمرهم علي نقض ما تعاهدوا عليه،وأرسل الله علي صحيفتهم التي كتب فيها نص المعاهدة الأرضة فأتت علي معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التي فيها ذكر الله عز وجل.**

**وقد أخبر الرسول صلي الله عليه وسلم عمه أبا طالب بذلك، فقال له أبو طالب: أربك أخبرك بذلك؟ قال نعم، فمضي في عصابة من قومه إلى قريش، فطلب منهم أن يأتوه بالصحيفة موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاؤوا بها وهي مطوية، فقال أبو طالب: إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني قط، أن الله تعالى قد سلط علي صحيفتكم التي كتبتم الأرضة فأتت علي كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم، فو الله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا وإن كان الذي يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون، فقالوا قد رضينا بالذي تقول.**

**ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق صلي الله عليه وسلم فقالوا هذا سحر ابن أخيك ! وزادهم ذلك بغياً وعدواناً.**

**ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش، مشوا في نقض الصحيفة، وإنهاء هذا الحصار. وهم : هشام ابن عمرابن الحارث، وزهير ابن أمية، والمطعم ابن عدي، وأبو البختري ابن هشام، وزمعة ابن الأسود.**

**وكان أول من سعي إلى نقضها بصريح الدعوة زهير ابن أمية، أقبل علي الناس عند الكعبة فقال يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكي لا يباعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، ثم قال بقية الخمسة نحواً من هذا الكلام، ثم قام المطعم ابن عدي إلى الصحيفة فمزقها، ثم انطلق هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة، إلى بني هاشم وبني المطلب ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم.**

**العبر والعظات :**

**هذه القطيعة الظالمة، تصور قمة الشدة التي لقيها النبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه طيلة ثلاثة أعوام، وقد رأيت المشركين من بني هاشم وبني المطلب، شاركوا المسلمين في تحملها، ولم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله صلي الله عليه وسلم.**

**وليس لنا من حديث عن هؤلاء المشركين وسبب موقفهم هذا، فقد كان الذي دفعهم إليه حمية القرابة والرحم، وإباء الذل الذي كان يتلبس بهم لو أنهم خلوا بين محمد صلي الله عليه وسلم ومشركي قريش من غير بني هاشم وبني المطلب يقتلونه ويفتكون به، بقطع النظر عن العقيدة والدين، فقد آثروا إذاً أن يجمعوا بين رغبتين في صدورهم :**

**الأولي: الثبات علي الشرك والاستكبار علي الحق الذي جاءهم به محمد صلي الله عليه وسلم.**

**الثاني: الانصياع للحمية التي تدعوا إلى حماية القريب من بطشة الغريب وظلمه، بحق كان أو باطل.**

**أما المسلمون وعلي رأسهم رسول الله صلي الله عليه وسلم، فإنما صبرهم علي ذلك الانصياع لأمر الله، وإيثار الآخرة علي الدنيا، وهو أن الدنيا عندهم في جنب مرضات الله عز وجل، وهذا ما يهمنا أن نبحث فيه، قد تسمع بعض المبطلين من محترفي الغزو الفكري يقولون : إن عصبية بني هاشم وبني المطلب كانت تكمن خلف دعوة محمد صلي الله عليه وسلم وتحوطها بالرعاية والحفظ !... والدليل علي ذلك موقفهم السلبي من مشركي قريش في مقاطعتهم للمسلمين .**

**وإنها لمغالطة مكشوفة، لا يتماسك عليها حجاب أي منطق ولو كان صوريا، ذلك لأن من الطبيعي جداً أن تقود الحمية الجاهلية بني المطلب وبني هاشم إلى الذود عن حياة ابن عمهم عندما تتهددها يد غريبة ويدنوا منها بالسوء شخص دخيل.**

**والحمية الجاهلية إذ تدفع ذوي القربي إلى مثل هذا التعصب، لا تنظر إلى مبدأ، ولا تتأثر بحق أو بباطل، وإنما هي العصبية ولا شيء غير العصبية، ولذلك أمكن أن يجتمع في ذوي قرباه صلي الله عليه وسلم صفتان متناقضتان بحسب الظاهر وهما : الاستكبار علي دعوته والجحود بها، والانتصار له ضد سائر المشركين في قريش.**

**ومع ذلك فأي فائدة حققوها للنبي صلي الله عليه وسلم من وراء اعتصامهم معه؟ لقد أوذوا كما أوذي هو وأصحابه، ومضت قريش في قطيعتها للمسلمين بالضراوة والشراسة اللتين أرادتهما دون أن يخفف بنو هاشم أو بنو المطلب من غلوائهما شيئاً.**

**والمهم أن تعلم بأن حماية الأقارب لرسول الله صلي الله عليه وسلم لم تكن حماية للرسالة التي بعث بها وإنما كانت حماية لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين، وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب علي الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم، فأنعم بذلك من جهد مشكور، وسبيل يتنبهون إليها.**

**أما رسول الله صلي الله عليه وسلم ومعه أصحابه المؤمنون، فما الذي كان يمسكهم علي هذا الضيق الخانق ؟... وأي غاية كانوا يتأملونها من وراء الثبات علي الشدة؟ بماذا يجيب علي هذا السؤال أولئك الذين يتأولون رسالة محمد صلي الله عليه وسلم وإيمان أصحابه به علي أنها ثورة يسار ضد يمين أي ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين؟**

**تصور هذه السلسلة التي استعرضناها، من حلقات الإيذاء والتعذيب لرسول الله صلي الله عليه وسلم ولأصحابه، ثم أجب علي ضوئها : كيف يستقيم أن تكون دعوة الإسلام ثورة اقتصادية ألهبها الجوع وقادها الحقد علي تجار مكة وأرباب الفعاليات الإقتصادية فيها ؟**

**لقد عرض المشركون علي رسول الله صلي الله عليه وسلم الملك والثراء والزعامة، علي أن يتخلي عن الدعوة إلى الإسلام، فلماذا لم يرض عليه الصلاة والسلام بذلك، ولماذا لم يثر عليه أصحابه ولم يضغطوا عليه - وإن غايتهم الشبع بعد الجوع - كي يقبل بعرض قريش ؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بشيء أكثر من الحكم يكون في أيديهم والمال يكون في جيوبهم ؟**

**ولقد قوطع محمد صلي الله عليه وسلم ومعه أصحابه المسلمون عن سبيل كل معايشة اقتصادية واجتماعية مع بني قومه، فلم تترك سلعة تتسلل إلى أيديهم، ولم يترك طعام يدخل إلى بيوتهم، حتى راحوا يأكلون أوراق الشجر، وهم علي ذلك صابرون، محدقون برسول الله صلي الله عليه وسلم، أفهكذا يصنع من تعتلج وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش ؟ !..**

**وعندما هاجر النبي صلي الله عليه وسلم إلى المدينة وهاجر إليها من قبله ومن بعده أصحابه، تركوا المال والأرض والممتلكات المختلفة واستقبلوا بوجوههم شطر المدينة المنورة، وقد تجردوا من كل ما يتعلق به الطامعون في المال، لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلا، ولا يقيمون وزنا لدنيا فاتتهم ولملك أدبر عنهم، أفهذا هو الدليل علي أنها ثورة يسارية قامت من أجل لقمة طعام ؟!**

**قد يكون دليل هؤلاء الناس علي ما يتصورون ملاحظة الأمرين التاليين:**

**الأول: أن الجماعة الأولي من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم في مكة كانت أغلبيتهم من الفقراء والموإلى والمضطهدين، وهو ما يدل علي أنهم ينفّسون بإتباعهم محمد صلي الله عليه وسلم عن شيء من كربهم، وإنهم كانوا يتأملون مستقبلا إقتصادياً أفضل لأنفسهم في ظل الدين الجديد.**

**الثاني: أن هؤلاء الأصحاب ما لبثوا بعد حين أن فتحت عليهم آفاق الدنيا، وأقبل إليهم الثراء والمال، وهو دليل علي أن خطة الرسول صلي الله عليه وسلم كانت ترمي إلى تحقيق هذه الغاية، وأنت إذا تأملت في استدلالاتهم علي ما يتصورونه، بهاتين الملاحظتين أدركت كم هو نصيب الخيال من عقولهم ومنهج تفكيرهم.**

**أما أن الجماعة من أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم كانت علي الأغلب من الفقراء والموالي، فنعم، ولكن ليس بين هذه الحقيقة وذلك الوهم أي علاقة أو نسب، إن شريعة الله تقضي بإرساء العدالة بين الناس، وبالضرب علي يد كل ظالم وطاغية متجبر ومستكبر، من المسلم أن يعرض عنها بل أن يحاربها أولئك الذين إستمرؤوا حياة البغي والظلم، لأنها تحملهم المغارم أكثر من أن تقدم إليهم المغانم، كما أن من المسلم به أن يرحب بها كل مستضعف مظلوم، بل كل إنسان ليس له في تجارة البغي والاستغلال نصيب، لأنها تقدم لهم المغانم أكثر من أن تقدم لهم المغارم، أو لأنهم - علي أقل تقدير - ليست لهم مع الناس مشكلات تجعلهم يستثقلون تبعاتها وتكليفاتها.**

**إن معظم من كان حول رسول الله صلي اله عليه وسلم كان مستيقناً أنه علي الحق وأنه نبي مرسل، ولكن أرباب الزعامات وعشاق العظمة والسيطرة، وجدوا من طبيعتهم وظروفهم ما أصبح عائقاً لهم عن الاستسلام لهذا الحق والتفاعل معه، أما الآخرون فلم يجدوا ما يعيقهم عن الاستسلام لشيء يمنوا به واستيقنوه. فما العلاقة بين هذه الحقيقة التي يفهمها كل باحث، وما يزعمه أولئك الزاعمون ؟**

**وأما أن خطة الدعوة الإسلامية التي سلكها الرسول صلي الله عليه وسلم كانت تستهدف امتلاك المسلمين لمنابع الثروة واستيلائهم علي عروش الملك واستلاب السيادة منهم، بدليل أن المسلمين قد وصلوا فعلاً إلى ذلك - فإنه والله أشبه بمحاولة الجمع بين المشرق والمغرب!**

**إذا كان المسلمون قد تمكنوا من فتح بلاد الروم والفرس، في حقبة يسيرة من الزمن، بعد أن صدقوا الله في إسلامهم، أفيكون ذلك دليلاً علي أنهم أسلموا طمعاً بعرش الروم والفرس؟!**

**لو أنهم أرادوا من وراء إسلامهم الوصول إلى شهوة من شهوات الدنيا أياً كانت، لما تحقق لهم ولا الجزء اليسير من معجزة ذلك الفتح.**

**لو كان عمر ابن الخطاب وهو يجهز جيش القادسية ويودع سعد ابن أبي وقاص، يستهدف كنوز كسري، ويسيل لعابه رغبة في أن ينقلب في مثل نعيمه ويجلس علي مثل عرشه، لما عاد إليه سعد إلا بأثقال من الخيبة والهوان، ولكنهم صدقوا الله في الجهاد من أجل نصرة دين الله، فصدقهم فيما أكرمهم به من تمليكهم زمام الحكم وإغنائهم بما لم يكونوا يحلمون.**

**لو كان الحلم الذي يراود المسلمين في معركة القادسية، وصولاً إلى ثروة وتقلباً في نعيم وتحقيقاً للذائذ العيش إذاً لما دخل ربعي ابن عامر رضي الله عنه سرادق رستم مزدرياً مظاهر الترف التي غمس فيها السرادق غمساً يتوكأ بزج رمحه علي البسط والنمارق الفاخرة حتى أفسدها، ولما قال لرستم إن دخلتم الإسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم !... أهكذا يقول من جاء ليستلب الملك والأرض والمال؟**

**لقد أكرمهم الله بمقدرات الدنيا كلها، لأنهم لم يكونوا يفكرون فيها، وإنما كان تفكيرهم منصرفاً إلى تحقيق مرضاة الله، ولو كانوا يستهدفون من جهادهم هذه المقدرات لما وصلوا إلى شيء منها**

**المسألة بما فيها ليست إلا تحقيقاً للقانون الإلهي الذي يقول :( ونريد أن نمن علي الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ) ، وأن تفهم هذا القانون لأيسر ما يكون علي العقل أي عقل كان، بشرط واحد أن يكون صاحبه حراً عن العبودية لأي رغبة أو غرض .**